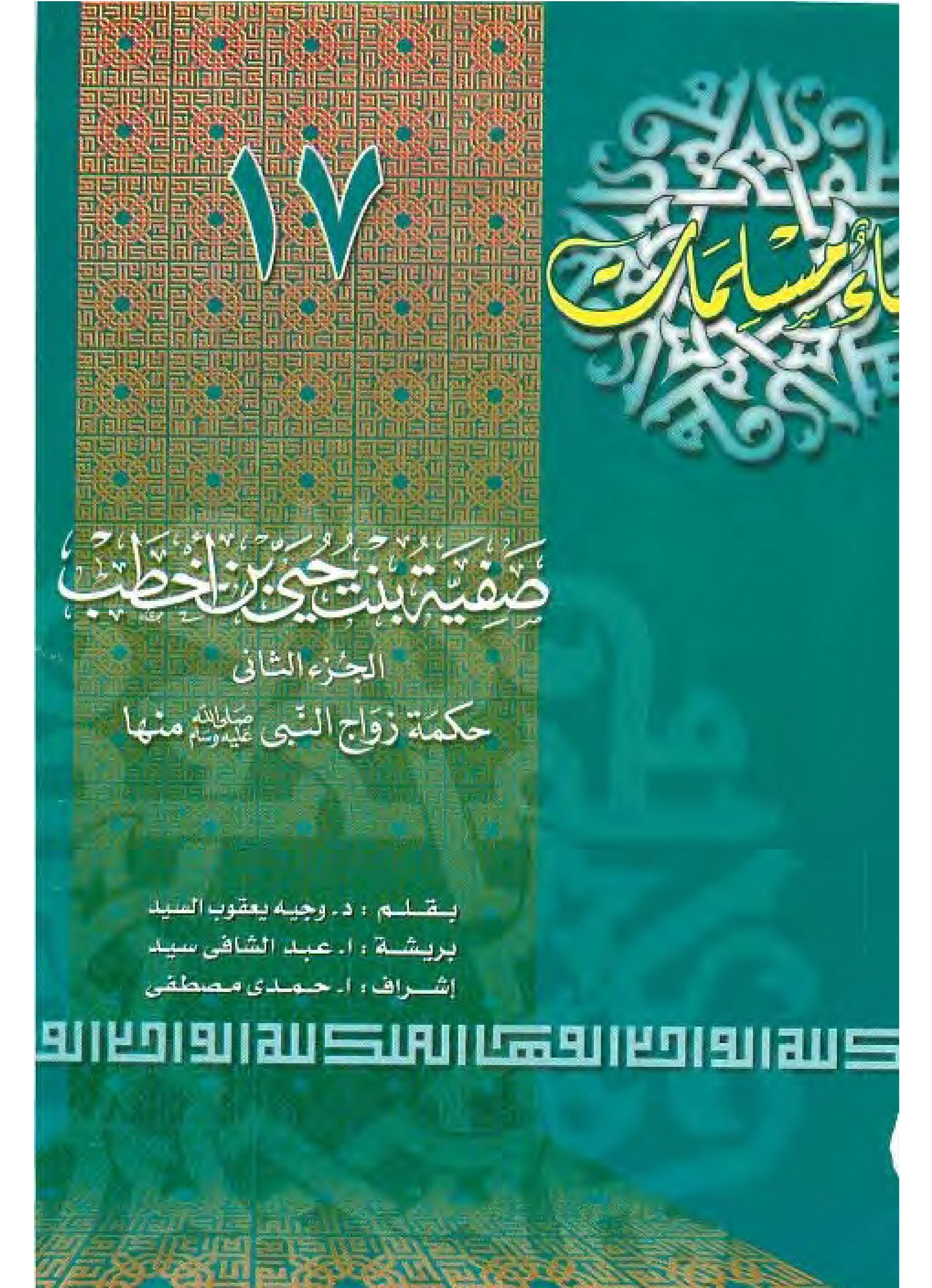


١٧
صفية بنت حيي بن أخطب
الجزء الثانى
حكمة زواج النبى صلى الله عليه وسلم منها
بقلم : د. وجيه يعقوب السيد
بريشة : أ. عبد الشافى سيد
إشراف : أ. حمدى مصطفى

تزوجَ الرسـولُ ﷺ من صـفـيّـةَ بنت حُـيىّ بنِ أخْطبَ الْيـهوديّةِ الأَصْلِ ، بعْدَ أنْ أسْلمتْ وحسنَ إسْلامُهـا ، وبرغْمِ سعَادةِ الْمسلمينَ بهذا الزّواجِ الإنْسانىِّ ، فقدْ أبْدَوْا خوْفَهم على رسولِ اللّه ﷺ منْها ، حيثُ خَشُوا أنْ تُدبّرَ له حيلةً تتخلّصُ بها منهُ انْتقامًا لأهْلِها وقوْمِها .

فـفى تلكَ اللّيلةِ التى دخلَ فيـهـا الرسـولُ ﷺ بزوْجَتـه صـفـيّـةَ ، ظلّ « أبو أيُّوب الأنصـارىُّ » بالْقُـرب منْ منزلِ الرسولِ ﷺ وهو يحـملُ سيْفَه ، فلما أصْبحَ الرسولُ ﷺ سألهُ فى دهْشةٍ :

مالكَ يا أبا أيُّوب ؟

فأجابَ :

ـ يا رسولَ اللّهَ ، خفْتُ عليْكَ من هذه الْمرأة ، قدْ قتلْتَ أباها وزوْجَها وقوْمَها ، وكانتْ حديثةَ عهْدٍ بكُفْرٍ فخفْتُها عليكَ .

فدعَا الرسولُ ﷺ لأبى أيُّوبٍ وقالَ :

ـ اللّهُم احفَظْ أبا أيُّوبٍ كما باتَ يحفَظُنى !

ثم أمرهُ بالانْصراف بعْد أنْ أشاد بصدْق صفيَّة وحسْن إسلامها .

وقدْ تأكَّد الرسولُ ﷺ بنفْسه من حبِّ صفيَّة بنت حيي له وخوْفها عليه من الْيهود فى تلك اللَّيْلة التى تزوَّجها فيها .

ففى أثناء عودَتها مع الرسول ﷺ أراد أنْ يُقيم ليْلة الْعُرس فى مكانٍ قريبٍ من ديارها فأبَتْ صفيَّةُ ذلك ،



حتى إنَّ الرسولَ ﷺ أغْضَبهُ ذلكَ ، فلما اقْتَربا من الْمدينةِ ووصلَ النبيُّ ﷺ إلى دارِه ، تزيَّنتْ صفيةُ على أحْسنِ ما يكونُ ، وأقامَ لها الرسولُ ﷺ ليلةَ عُرْسٍ تليقُ بها .

وخطرَ للرسولِ ﷺ أنْ يسْألها عنْ سببِ رفْضِها النُّزولَ فى الدارِ التى أعدَّها أولاً فقالَ لها :

ـ ما حَملَكِ على الامْتناعِ من النُّزولِ أولاً ؟

فقالتْ صفيةُ :

ـ خشيتُ عليْكَ منْ قُرْبِ الْيهودِ .

فزادَ ذلكَ منْ حُبِّها فى قلْبِ النبيِّ ﷺ وتأكَّدَ منْ حُسْنِ إسْلامِها واتِّباعِها له .

ولما سألَ النبيُّ ﷺ زوجتَهُ عائشةَ عنْ رأْيِها فى صفيَّةَوقالَ لها :

ـ كيْفَ رأيتِ يا عائشةُ ؟

فقالتْ عائشةُ :

ـ رأيْتُ يهوديَّةً !

فقالَ لها رسول الله ﷺ :

- لا تقُولي ذلك ، فإنها أسْلمتْ وحسُنَ إسلامُها .

وليس بعدَ شهادةِ رسولِ اللّه ﷺ شهادةٌ ، فهو لا ينْطقُ عنِ الْهوى ، إنْ هو إلاَّ وحيٌ يُوحى .

ولِذلكَ فقدْ كان الرسول ﷺ يتألَّمُ كثيراً إذا أغْضبتْ إحدَى نسائِه صفِيَّةَ بنْتَ حُييٍّ وذكرتْها بأصْلها الْيهودِيِّ .



ففى إحدى الغزوات ، اصطحب الرسولُ ﷺ صفيةَ بنت حُيى وزينب بنت جحشٍ ، وفى الطريقِ اعتلَّ بعيرُ صفيَّة ، وكان مع زينب بنت جحشٍ بعيران ، فقال لها النبىُّ ﷺ :

ـ إنَّ بعيراً لصفيَّة اعتلَّ ، فلو أعطيتِها بعيراً ؟!

فقالتْ زينبُ :

ـ أنا أُعطى تلك اليهوديَّة !

وغضب الرسولُ ﷺ حين سمع هذه الكلمة من زينبَ ، ونهاها عن التَّلفُّظ بها مرةً أخرى ، ولمْ يكتف ﷺ بذلك بلْ ظلَّ تاركًا دار زينبَ ثلاثة أشهرٍ كاملةً لا يأتيها بسبب ما قالتْهُ فى حقِّ صفيةَ (رضى اللَّهُ عنها) .

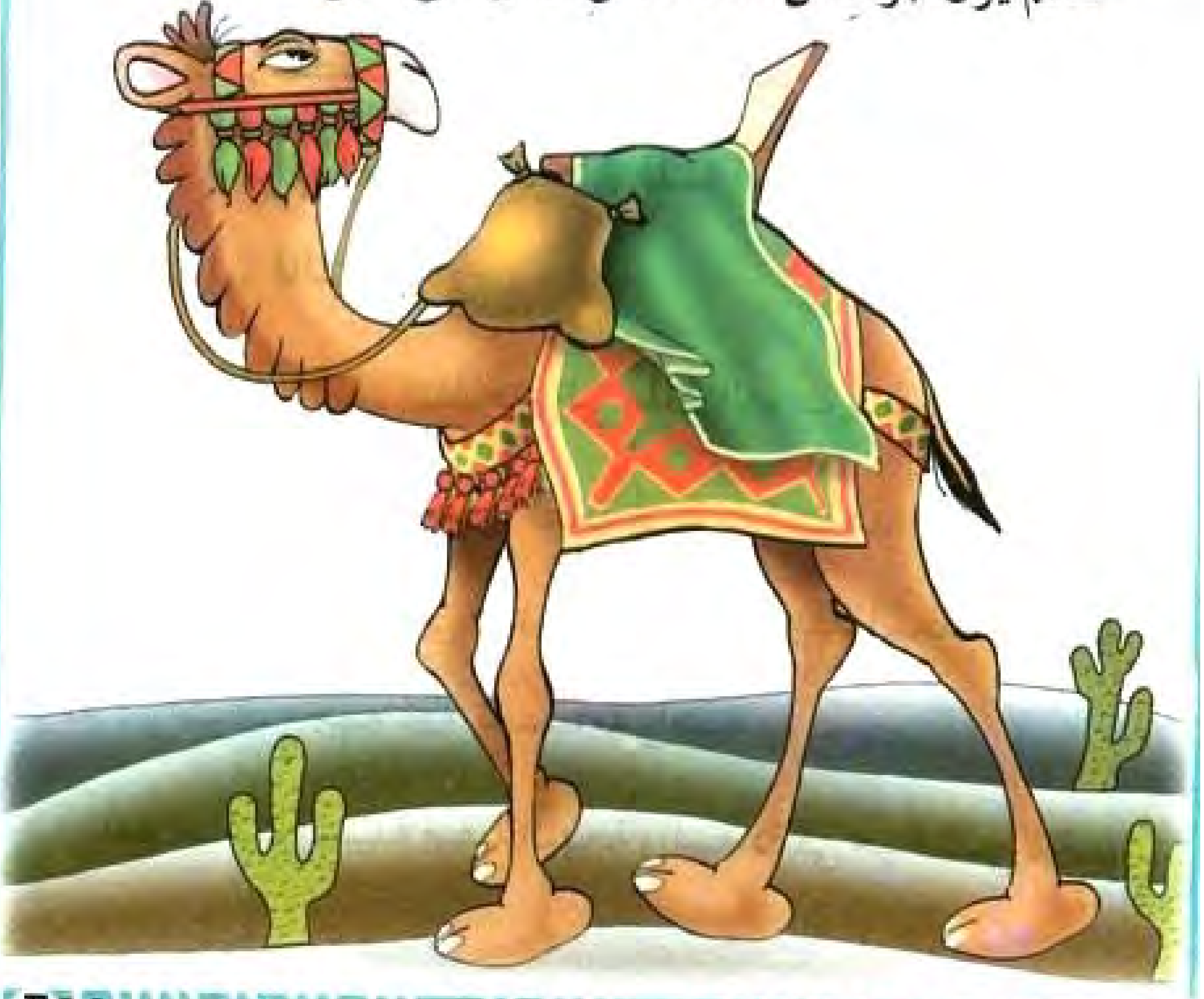
وعاشتْ صفيةُ (رضى اللَّهُ عنها) فى بيتِ النبى ﷺ سعيدةً راضية ، ووجدتْ فى الرسول ﷺ الزوج والأب والأخ ، وفوقَ هذا كلِّه وجدتْ فيه الرسول الإنسانَ ، الذى يفيضُ على منْ حولَه بالحُبِّ والعطف ، ويتألَّمُ لآلامِ النَّاس ، ويأسى لجراحِهم ، ولعلَّهُ قدْ تألَّم لما حدثَ لها فرقَ

لها قلبَهُ الْكبيرَ وأغْدقَ عليها من حُبِه وعطْفه .

وسَعدَ الرسولُ ﷺ بصفيَّة ، فقدْ كانت امرأةً صالحةً شديدةَ الذكاء والْفطْنة ، يدلُّ كلامُها على براعَتها وذكائها الشديد .

ففي أوَّلِ يومْ رآها فيه الرسول ﷺ قالَ لها :

ـ لَمْ يزلْ أبوكِ من أشدّ الناسِ عداوةً لي حتى قتلْتُه .



فقالتْ :

ـ يا رسول اللَّه ، إنَّ اللَّهَ يقولُ فى كتابه الْعزيز :

﴿ ولاَ تزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ [سورة الإسراء : ١٥]

فلمَّا خيَّرها الرسولُ ﷺ بين الْعتْقِ أو الْبقاءِ معه قالتْ :

ـ بلْ أَختارُ اللَّهَ ورسولَهُ .

ولاحظَ الرسولُ ﷺ أَثر لطْمَةٍ قديمةٍ على وجْهِها فسأَلها عنْ ذلك ، فقصَّتْ عليه صفيَّةُ الرؤْيا التى رأَتْها منْذُ أَعْوامٍ ، إذْ رأَتْ قمراً وقع فى حجْرِها ، فلما أَصْبحتْ وقصَّتْ على أُمِّها الرؤْيا قالتْ لها :

ـ ما هذا إلا أنك تتطلَّعينَ إلى ملكِ الْعربِ محمد .

ثم لطَمتْها على وجْهِها لطمةً قويةً تركتْ هذا الأَثَرَ عليه ، ونظرَ الرسولُ ﷺ إلى صفيَّةَ فى شفقةَ ، وقدْ أَسْعدهُ ما قالَتْهُ له ، وأَشْرقَ وجهُهُ ﷺ بابْتسامةٍ راضيةَ .

لقدْ أَشاعتَ السيدةُ صفيةُ الْبهْجةَ والسَّعادةَ فى حياة النبىِّ ﷺ ،

فقدْ كانتْ بارعةً فى الْحديثِ ، شديدةَ الذَّكاءِ والفطْنةِ ، كما كانتْ جميلةَ الخَلْقِ والخُلُقِ .

قالت عنَها ماشطَتُها :

ـ ما رأَيْتُ بينَ النِّساءِ أجْملَ منها .

وحاولتْ صفيةُ أنْ تكفِّرَ عن ذنوبِها السابقَةِ ، فراحتْ تتقرَّبُ إلى اللَّهِ بالطَّاعاتِ والأعمالِ الصَّالحةِ ،



وكَانَ ماضِيها وماضِي أُسْرتِها وأَهْلِها فى مُحاربةِ الإِسلامِ أَمْرًا يُقْلِقُها للغايةِ ، وكمْ تمنّتْ أنْ يمحَى عنها هذا التاريخُ وهذا النَّسبُ الذى لا يُشرِّفُها ، حتى لا يجدَ أحدٌ فى ذلكَ فُرْصةً للطّعْنِ فى دينِها وإسْلامِها .

لكنَّ الرسولَ ﷺ ، كانَ يخفِّفُ عَنْها هذا الشُّعورَ ، فهِى وإنْ كانتْ تَنْتَمِى إلى الْيهودِ ، فقدْ كانَ جدُّها هارونُ عليه السلام يهوديًّا ، كما كانَ عمُّها موسَى عليه السلام نبيًّا عظيمًا ، فلماذا لا تَنْتسِبُ إلى هؤُلاءِ الأنبياءِ الْعُظماءِ بدلاً منْ حفْنَةٍ مِن الأَشْرارِ ؟

جلستْ صفيةُ مع عائشَةَ وحفْصَةَ ذاتَ يوْمٍ ، فقالا لها كلامًا أَغْضبَها ، حيثُ ذكرا لها أَصْلَها اليهُودِىَّ ، ولما دخل عليها الرسولُ ﷺ رآها تبْكِى فسألها عنْ سببِ بُكائِها فقالتْ :

ـ ذكرتْ عائشةُ وحفصةُ أنهمَا خيرٌ منِّى لأَنى كنتُ امْرأَةً يهوديَّةً !



وأضافتْ صفيةُ قائلةً وهى تمسحُ دمُوعَها :

ـ لقدْ قالتا لى : نحنُ أكرمُ علَى رسولِ اللّهِ ﷺ منكِ ، فنحنُ أَزْواجه وبناتُ عمِّه .

فمسحَ الرسولُ ﷺ دمُوعَها بردائِه وقالَ لها :

ـ ألا قلتِ لهما : وكيْفَ تكونانِ خيْراً منىّ ؟ وزوْجى محمدٌ ، وأبى هارُونُ ، وعمِّى موسَى .



وأرضى هذا الكلامُ صفيةَ (رضى اللّه عنها) ، ونزل على قلبها بردًا وسلاما ، فحمدت ربَّها على ذلك ، وظلَّ لسانُها يردِّدُ كلَّ حينٍ فى افتخار :

-زوجى محمدٌ ، وأبى هارونُ ، وعمِّى موسى !

ومنذُ أنْ عرفتْ صفيةُ الإسلامَ وذاق قلبُها حلاوةَ الإيمان ، وهى تُخْلِصُ للرسول ﷺ وتحبُّهُ حبًا شديدًا ، فقدْ كان ﷺ بأخلاقه الرائعةِ سببًا فى إسْلامِها .

وفى مرضِ الرسول ﷺ الأخيرِ الذى ماتَ فيه ، عبَّرتْ صفيةُ عنْ شعُورِها الصَّادق تجاهَ زوجِها ورسولِها ﷺ ، فقدْ دخلتْ على الرسولِ ﷺ وهو جالسٌ بينَ بعضِ نسائه ، فرأتِ الألَمَ يشتدُّ عليه ، فبكتْ بكاءً حارًا ، وقالتْ :

-إنِّى واللّه يا نبيَّ اللّه ، لوددتُ أنَّ الذى بكَ كانَ بى .

فنظرتْ نساءُ النبيِّ ﷺ إلى بعضهنَّ ، كأنهنَّ غيرُ مصدِّقاتٍ ما تقولُه صفيةُ ، فغضبَ الرسول ﷺ من تغامُزِهنَّ بها وقالَ لهنَّ :

ـ واللّهِ ، إنها لصادقةٌ .

وبعْدَ وفاة الرسولِ ﷺ ، وفى خلافة عُمَرَ بنِ الخطاب ، أرادتْ جاريةٌ لصفيَّةَ (رضى اللّه عنها) أنْ توقِعَ بيْنَها وبين أَميرِ الْمؤْمنين فذهبتْ إليه وقالتْ له :

ـ إن صفيَّةَ تحبُّ السَّبْتَ ، وهو يومُ احْتفالِ الْيهودِ ، وتتصدَّقُ على الْيهودِ وتصلُهمْ بأمْوالِها .



وبعثَ عـمرُ بنُ الْخطاب إلى صـفـيـة (رضى اللَّهُ عنـهـا) وسألها عنْ ذلكَ فقالتْ :

ـ أمَّا السبْتُ ، فإنى لم أحبَّهُ منذُ أبْدلنى اللَّهُ به الْجمعةَ ، أما الْيهودُ فإنَّ لى فيهمْ رحِمًا ، فأنا أصلُها .

وسألتْ صفيـةُ (رضى اللَّهُ عنها) جاريَتَهـا التى كانتْ تُحسنُ إليها :

ـ ما حملكِ على هذا ؟

فقالتِ الْجاريةُ وهى تُظْهِرُ ندَمَها :

ـ الشيْطانُ .

فقالتْ لها صفيةُ :

ـ اذْهبى ، فأَنْتِ حرَّةٌ .

ـ لقدْ كانت السيدةُ صفيةُ بنتُ حُيىِّ بنِ أخطبَ يهوديَّةً ذاتَ يومٍ ، وكانَ أهْلُها جميعًا يُضْمرونَ الْعداءَ والْكراهيةَ للرسـولِ ﷺ ، لكنَّ اللَّهَ (تعـالى) شـاءَ لهـا الْهِـدايةَ ،

وأنْعمَ عليها بأنْ صارتْ زوْجَةً للرسولِ ﷺ ، وكانَ هذا الزَّواجُ نبيلاً بمعنى الْكلمةِ ، وكانَ توْقيتُهُ مُوفَّقًا للْغايةِ ، حيثُ أَخرجَ صفيةَ (رضى اللهِ عنها) منَ الظلُماتِ والْيأْسِ والْكُفرِ إلى رحابةِ الإيمانِ وسُمُوِّ تعاليمِهِ .



وَنالتْ صَفِيَّةُ (رضىَ اللَّهُ عنها) رضا الرسولِ ﷺ ، فشَهِدَ لها بحُسْنِ الإسلامِ والصِّدْقِ ، ولذلك فقدْ روَى عنها كثيرٌ منَ الْعُلماءِ ، حيثُ روَى عنها ابْنُ أَخِيها كِنانَةُ ، ومولاها يزيدُ بنُ معتبٍ ، وزينُ الْعابدينَ عليٌّ بنُ الْحسينِ ، وإسحاقُ بنُ عبدِ اللَّهِ بنِ الْحارثِ بنِ مُسْلمِ بنِ صفْوانَ .

وفى العامِ الثانى والْخمسينَ للْهجْرةِ ، وفى خلافَةِ معاويةَ بنِ أبى سُفْيانَ ، تُوُفِّيتْ صفيةُ (رضىَ اللَّهُ عنها) ، رحِمها اللَّهُ رحْمةً واسعةً ، ونفعَ أُمَّهاتِنا ونساءَنا وبناتِنا بسيرتِها الْعطرةِ .

(تَمَّتْ)

الكتاب القادم

أم حبيبة رملة بنت أبى سفيان (١) الاختيار الصعب

رقم الإيداع : ٢٠٠٢/٧٣٢٤
الترقيم الدولى : ٢ ـ ٧٥٩ ـ ٢٦٦ ـ ٩٧٧